الكتاب الثانى
انجلــــترا
١٦٤٩ — ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ — الثورة الإشتراكيــة

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول ، فى ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس عـــلى حياتهم وممتلكاتهم ، فى انجلترا التى أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التى دامت سبع سنين . ونادى « البرلمان المبتور Rump. p » — وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد « حركة تطهير برايد » (١٦٤٨) — بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول ، وأن فيه الكفاية ، وألغى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩) ، كما ألغى الملكية ، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له « مجلسا للدولة » يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم ، كلهم مستقلون — أى بيوريتانيون جمهوريون . وفى ١٩ مايو أقام مجلس العموم ، بصفة رسمية ، الجمهورية الإنجليزية : « ولسوف يتولى الحكم فى إنجلترا منذ الآن ، بوصفها جمهورية أو دولة حرة ، السلطة العليا للأمة ، وهم ممثلو الشعب فى البرلمان ، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء ، لخير الشعب[1] » . ولم تكن الجمهورية ديموقراطية . لقد طالب البرلمان باقامة أساس ديموقراطى ، ولكن طرد الأعضاء الملكيين أثناء الحـــرب ، والمشيخيين (البرسبتريان) فى حركة التطهير ، كان كما قال كرومول ، « قد شتت البرلمان وغربله واختزله إلى مجرد حفنة من الرُّذال[2] » .

إن الملاك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان فى الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون فى «البرلمان للبتور» ولم تستند سلطة هذا البرلمان للبتور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذى استطاع أن يحميه من الثوار للملكيين فى إنجلترا ، والثوار الكاثوليك فى إيرلنـــده ، والثوار للشيخيين فى اسكتلندة ، والثوار للتطرفين فى الجيش نفسه .

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان فى فرض الضرائب قدر مافعل الملك الراحل . واقترح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفاعا عن شارل ، ولكنه فى معظم الحالات أرتضى تسوية الأمر بحل وسط ، هو تقاضى غرامة تعادل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيعة . من أجل هذا عمد كثير من صغار النبلاء الذين عانوا الفقر والعوز فى انجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرات أرستقراطية ، مثل آل : وشنجطن ، وآل راندولف ، وآل ماديسون وآل لى(*) . وأعدم بعض زعماء الملكيين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جابى ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه « صورة ملكية » لمؤلفه القسيس الشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمن وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك(٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التى عرضها الكتاب هى صورة حاكم طيب القلب كان فى واقع الأمر يدافع عن انجلترا ضد طغيان أقلية حاكمة (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية الانجليزية حيث حرضت أبناء الارستقراطيين الانجليز فى الجنوب على أبناء البيوريتانيين الانجليز فى الشمال .

لا ترحم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات فى سنة واحدة ، ولم تفلح الضجة التى أثارها كتاب ملتون «تحطيم الصور المقدسة» (١٦٤٩) فى محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب فى إثارة الرأى العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملكيين الذين شرعوا لفورهم فى كل مقاطعة فى انجلترا يهيجون الشعور العام لاعادة أسرة ستيوارت . وقابل مجلس الدولة هـذه الحركة ببث العيون والأرصاد على أوسع نطاق ، والاسراع فى القبض على الزعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفى الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالى وقسم كبير من الجيش، يطالبون بديموقراطية شاملة بكل ما فى الكلمه من معنى . كما طالب بعضهم بديموقرطيه اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون فى تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرتد منافق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما تحدثت إلى كرومول فى أى موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد . أنه سوف يبكى ويصرخ ويبدى الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلا(٤) . «وفى إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يحكمنا من قبل الملك واللوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم فينا قائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب، فقل لنا بربك ، ماهو الفرق ؟ « (٥) وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر . وفى أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لاصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهى « مكبلة فى أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالبا بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس المعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته، متحديا ، إتهاما بالخيانة العظمى « موجها ضد كرومول وأيرتون » . وفى أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة فى قضية أثارت اهتمام الرأى

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى كلبيرن القضاة، وطالب بعرض القضية على هيئة المحلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط فى دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا إنقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاة من شدة الفزع(٦) وظل كلبيرن لمدة عامين بطل الجيش . وفى فى ١٦٥٢ ثم عاد فى ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣)، ولكنه ظل مع ذلك سجينا . وفى ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧ ، وهو فى الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ فى البرلمان الطويل ١٦٤٧ يدعو إلى ازالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه كلبيرن والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعا أقرب إلى المساواة . أنهم تساءلوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعا على حين يحتكر الأغنياء الأرض؟ . وفى أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبى » يدعى وليم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج فى سرى ، ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلحوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم — كما جاء فى تقرير إلى مجلس الدوله ، ليهددون الجيران بأنهم سيحملون الجماعة كلها على القدوم وشيكا إلى التلال للعمل فيها(٧) . « ولما سبق افرارد للمثول أمام نقيب الجيش سير توماس هيرفا كس ، أوضح له أن أتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضى العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتى ثمارها » « وأنهم يأملون » فى أن يحين فجأة الوقت الذى يأتى فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون عن أراضيهم وضياعهم ويذعنون لجماعة الأخيار هذه(٨) » . فما كان من هيرفا كس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متعصبون لايخشى منهم أى أذى . وتابع أحدهم — وهو

جيرارد ونستانلى — الحركة ببيان أصدره فى ٢٦ أبريل ١٦٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « فى البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملكا عاما مشتركا للحيوان والإنسان » ، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبدا أكثر خضوعا لبنى جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف فى الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت فى حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكراهية والبغضاء مالم تسترد الملكية العامة المشتركة(٩) . وفى « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستانلى إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لايوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من الكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويكون الزواج إجراء مدنيا ، والطلاق حرا مباحا(١٠) . وتخلى « الحفارون » عن مشروعهم ، ولكن دعايتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من ملاك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق فى هذه المثل العليا فى الملكية العامة ، بل لم يثق حتى فى حق الاقتراع للبالغين . وفى فترة الفوضى التى لامعدى عنها ، عقب قلب أية حكومة ، تدعو الحاجة إلى شىء من سلطة مركزة فى بعض الأيدى ، وقد تمثلت فى كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإنحلال الاقتصادى والسياسى بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه أنباء الثورة المضادة التى تدبر فى أيرلنده واسكتلنده ، غمره الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

لم يسعوا وراء « يوتوبيا » أو دنيا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تثأر وتنتقم .

٢ — ثورة أيرلنده

فى أيرلنده وجد رد الفعل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عاير ، بين البروتستانت فى اقليم (The Pale) فى شرق أيرلنده حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أرل أورموندجيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم فى ايرلنده ، معاهدة مع اتحاد الكاثوليك فى كلكنى Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفى مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندى مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاه وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذى اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثانى ، يدعوه فيها للقدوم إلى ايرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والكاثوليك . وآثر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله فى ايرلنده فى أغسطس ، كانت القوات الموالية للجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند فى رانميز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندى) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندى واقتحمها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقى حاميتها على قيد الحياة(١١) . ولم يفلت من المذبحة بعض المدنيين ، وقتل كل قسيس فى المدينة(١٢) ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول فى شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب القلوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذى يرجع إليه الفضل فى هذه الرحمة حقا(١٣) » وتمنى

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله(١٤) » .
وإنا لنشاركه رجاءه المخلص فى أن تضع مثل هـذه الضربة الواحدة من الإرهاب حدا للثورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام أخر ، فان كرومول تقدم من دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، وألقى ١٥٠٠ من المدافعين عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بشىء من عناية إلهية غير متوقعة ، فى عدله القويم ، قد أنزل بهم حكما عادلا . . . حيث كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التى اقترفوها ضد حياة الكثيرين من البروتستانت المساكين(١٥) » . ولكن سياسة المذابح أخفقت فان مدينتى دنكانون ووترفورد تحدتا حصار كرمول . واستسلمت كلكنى لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة فى أى مكان آخر ، وتم الاستيلاء على كلونمل ولكن بعد فقد ألفى رجل . وما أن ترامى إلى كرومول نبأ وصول شارل الثانى إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب فى ايرلنده لصهره هنرى أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولكنه مات بالطاعون فى ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ . ونبذت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن الثوار ، وبمقتضى معاهدة كلنكنى (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم بالهجرة دون عائق . وفى ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية فى أيرلنده » ، الذى ينص على مصادرة كل ممتلكات الأيرلنديين أو بعضها — أيا كان مذهبهم — ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه الطريقة انتقلت ملكية نحو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيكر) من أراضى ايرلندة إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو ايرلنديين كانوا يناصرون كرومول فى ايرلنده . وبهـذا انتقل ثلثا أرض ايرلنده إلى أيدى الإنجليز(١٦) . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو ووكسفورد

لتشكل « Pale » أو إقليما إنجليزيا جديداً فى ايرلنده ، وبذلت محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الايرلنديين أيا كانوا ، ثم المواطنين الآيرلنديين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الايرلندية من أملاكها، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطنا آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أماكن أخرى بتهمة التشرد .

وقدر سير وليم ربتى أنه من بين سكان ايرلنده البالغ عددهم ١٫٤٦٦٫٠٠٠ فى ١٦٤١ ، كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٦١٦٫٠٠٠ بسبب الحرب أو الموت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الانجليز : فى بعض المقاطعات « قد يسير المرء عشرين أو ثلاثين ميلا دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه(١٧) » . وحرم المذهب الكاثوليكى بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة ايرلندة فى بحر عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى انجلترة لتلقى أصول المذهب البروتستانتى (١٨) . إن كل الوحشية التى لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك فى فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صبها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك فى ايرلنده بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكثلكة جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الإيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما فى بحران من المعاناة والشقاء . وعلقت هذه السنين المريرة بذاكرة ايرلندة وكأنها تراث من البغضاء لا ينفى .

٣ — ثورة اسكتلندة

صعق الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذى كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزى ، وعاد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا فى «تطهير برايد» الذى أخرج المشيخيين (البرسبتريانز: كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا « للعصبة المقدسة والميثاق المقدس » الذى أقسم فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لاسكتلنده وللمذهب المشيخى ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلندة كما فرضوه على انجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضى أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنه شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيئة ، ليكون للملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلنده .

وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلنده طلبوا إليه أن يوقع للميثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة وللميثاق المقدس ، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب المشيخى أو إقامته فى كل أرجاء ملكه وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى « بريدا » فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذاك العصر — قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلنده ، أملا فى أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخيين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١ مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلندة ، وهو يتلهف على أن يكون على رأس جيش يغزو به الجمهورية البيوريتانية التي أطاحت برأس

أبيه . وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع فى ذلة وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة أبيه للعصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكثلكة)[١٩] . « والتكفير عن خطيئات شارل الأول والثانى فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكدوا للجيش أنه لن يقهر ، [٢٠] لأن الملك الشاب قد أرضى السماء . وتحت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولاءهم للملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده فى الحال ، دون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفاكس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية ، وكان قد رفض الاشتراك فى محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفا له ، فنظم قواته بعزيمته وعجلته المعهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يوليه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفى ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ماتقولون يلتئم إلتئاما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ، أن تفكروا فى أنكم قد تكونون مخطئين[٢١] » . وفى دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرعان ما استولى على أدنبره وليث . وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين ، وتبدد زعمهم بأنهم معصومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثانى رسميا فى « سكون Scone . » أما كرومول فقد إنتابه المرض فى ادنبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعاده تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى انجلترا ، أملا فى أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملكيين والمشيخيين المخلصين . فتعقبهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره بالمدن الإنجليزية كل قـــوات الطوارىء ، والمواطنين الصالحين للجندية ، وفى ووستر ، فى ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى المعركة التى أبقت على الجمهورية ، وحكمت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى . وفيها ، بفضل الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولـكنه لم يـكن قائدا . أنه بذل أقصى الجهد فى أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل نظامهم ، ولـكن يبدو أنهم ذعروا وارتعدوا فزعا من سمعة كرومول محاربا لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت فى مقر أحد الملـكيين . وهنالك تجرد من شعر رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد العمال ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من مخبأ إلى مخبأ . ينام تحت سطوح المنازل أو فى الحظائر والغابات . ونام مرة فى احدى أشجار « رويال أوك » فى بوسكوبل ، على حين كان جنود الجمهورية يفتشون عنـه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولـكنهم لم يغدروا به أو يـكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجـد هو ومرافقوه ، فى شورهام فى سسكس ، قاربا ارتضى ربانه ، مخاطرا بحياته ، أن ينقلهم إلى فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدى الثوار الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هـــذا فى فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت اسكتلنده لانجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولـكن أجيز لها إرسال ثلاثين نائبا عنها إلى برلمـان لندن . وعوقبت الـكنيسة الاسكتلندية بحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، واقـرار التسامح الدينى مع كل الشيع البروتستانية المسالمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة فى الإتجار مع انجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب عودة أسرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً

عاد كرومول إلى انجلترا منتصراً انتصارا يكلله التواضع . وإذ رأى الجموع التى احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على حبل المشنقة(٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنية ، وخصص له قصراً كان يوما ملكيا فى هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء فى منصب القيادة العامة . كما اقترح اجراء انتخابات جديدة ، لزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول فى الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب . وصحة الأصوات . وحمى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح باسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ ، بأى شىء يعكر صفو الحكومة أو يسىء إلى كرامتها(٢٣) » . وحرم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثلثى ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكى ، بصفة غرامة . وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك(٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه فى اتخاذ قرار ، كان حازما متأهبا لسرعة التصرف إذا اعتزم أمرا . وقد احتمل فى صبر نافد المناقشات التى أفسدت السياسة فى البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هوايتلوك الذى فقد صداقته باعتراضه عليها(٢٥) . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبث حتى تحدث فى عنف ، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليجاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها ، لاتصلح لحكم انجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . ولسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » . ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » . ودخل الجنود إلى القاعة . وأسرع كرومول باخلائها ، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شىء » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ، وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للايجار » غير مؤثث الآن(٢٦) » . ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ، وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفتكم الشخصية فلا بأس ، ولا يزعجنكم أحد — أما إذا كنتم مجتمعين كمجلس للدولة ، فلا مكان لكم هنا ... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل(٢٧) » . وهكذا كانت كانت النهاية المخزية المزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر ، بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها . ولم يعد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجلترا إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تذمر ظاهر لحاله(٢٨) » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أى مجىء المسيح المنتظر وحكمه وتشجع الملكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثانى ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك فى أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذى يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاونيه العسكريين أن يختاروا — بصفة أساسية من المجامع البيوريتانية فى إنجلترا — ١٤٠ رجـــلا ، من بينهم خمسة من اسكتلندة وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان معين » . ولما إنعقد هذا البرلمان فى هويتهول فى ٤ يوليه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذى إختارهم ، ولـكنه رحب بهم باعتبار أنهم يبدأون فترة يحكم فيها القديسون حكما صحيحا تحت رياسة يسوع المسيح(٢٩) ، وإقترح أن يخولهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد — وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد فى إنجاز هذه المهمة ، ولـكنه ضل الطريق فى متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأسا وعجزا ، فى موضوعات الدين والتسامح الديني . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باربيون » ، نسبة إلى أحـد أعضائه Barebone ، وهو أحد القديسين فى « الملـكية الخامسة » سالفة الذكر .

وضاق الجيش ذرعا بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعا بمن طردهم فى أبريل . وعرض الضباط — وهم يمثلون دور أنطونيو — على كرومول أن ينصب نفسه ملـكا ، وتردد قيصر وإعترض فى رفق ، ولـكن ثمانين من أعضاء البرلمان ، بإيحاء محدد من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول فى ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترع على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامى

جمهورية انجلترا واسكتلنده وايرلنده » ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملكيين والكاثوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية فى يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون لمدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية « لحامى حمى الجمهورية » وللبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهى « أول وآخر دستور انجليزى مسطور[٣٠] »، وفى ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامى الحمى ». وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية — اسمان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبدا ؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهى أمر طبيعى إلى أبعد حد فى الموهبة الواعية . لقد فكر من قبل فى تنصيب نفسه ملكا ، وتأسيس اسرة ملكية جديدة[٣١] . ويبدو أنه كان مخلصا حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هى آنذاك البديل الوحيد عن الفوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام. واستنكر المتطرفون فى الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » و« توعدوه » بمصير أسوأ من المصير الذى لقيه الطاغية السابق[٣٢] » . وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن» ومن بينهم اللواء هاريسون الذى تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور. أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئا فشيئا إلى المزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهلل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التى تثير الرهبة فى النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتهول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية(٣٣) . ولكن مما لاريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطباعا قويا فى نفس السفراء ، ويثير الفزع فى نفوس الأهالى .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والأبهة ، يعيش عيشة طابعها البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبا ممزوجا بالخوف عليه ، ترتعد فرقا على حياته لكل طلقة نسمعها ، وعند وفاتها فى الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إنى أترك قلبى معك(٣٤) » . أنه هو نفسه ، فى أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التى قيل أنها حديدية . أن حملات ايرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور للى فى ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر للى ، بودى أن تستغل كل ماأوتيت من مهارة فى رسم صورة حقيقية مثل شخصى تماما ، ولا تتملقنى على الإطلاق ، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبثور والتواءات وكل شىء ، وإلا ، فلن أنقدك فلسا واحدا(٣٥) » . وقبض للى أجره ، ورسم « حامى الحمى » فى صورة مصقولة إلى حد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوى ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الإنفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة الكئيبة فى لباسه العادى — سترة ويذلة بسيطتان سوداوان — ، ولكنه كان فى المناسبات الرسمية يرتدى سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه للتكلف أو التظاهر ، ولكن فى حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان السلية والدعابة والمزاح ، بل إلى مزحات عملية وهزل ماجن طارىء(٣٦) .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا(٣٧) . وواضح أنه كان ، حسب مايبديه ، مخلصا فى ورعه وتقواه(٣٨) ، ولكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه ، إلى حد اتهمه معه الكثيرون بالنفاق . ويحتمل أنه كان ثمة بعض الرياء فى تقواه العلنية ، وقليل منه فى تقواه الخاصه، مما شهد به كل من عرفوه . وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ ، ولا نزاع فى أنه اعتبر ، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن .. ولم تكن أخلاقياته الخاصة تشوبها شائبة ، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين ، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رآهما ضروريين لأهدافه الكبرى . أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم .

أن كرومول من الناحية الفنية ، لم يكن حاكما مطلقا . فإنه تنفيذاً لوثيقة الحكومة » التى أسلفنا ذكرها شكل « مجلس الدولة » وانتخب برلمانا . « وعلى الرغم من كل مساعى حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالكياسة ولين العريكة، ضم مجلس العموم الذى اجتمع فى ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين ، بل كذلك بعض الملكيين .وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش : حامى الحمى أوالبرلمان . وإقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطياتهم ، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥) . والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ طهر برايد البرلمان فى ١٦٤٨ .

وسيق كرومول آنذاك إلى الحكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها ، وفى صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية . ووضع على رأس كل منها هيئة من الجند يرأسها ضابط برتبة لواء وللوفاء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملكيين . واحتج الناس ، وانتشر النقد والتمرد ، وسمعت أصوات تنادى بعودة شارل الثانى . وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع فى أعمال التجسس

والإعتقالات التعسفية وإجراءات قاعة النجم التى أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهارى فين Vane » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأكل آباءها .

ولما كان كرومول فى حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق مافرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده فى ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٠٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا إنتخابا صحيحاً ، ولكن يشتبه فى أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبيهم التى عبروا عنها ، ودمغوا بأشد النفاق « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات العكلية ليستر قتام الحقيقة الواقعة ومرارتها(٤٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفى ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنقوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة متواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشم رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق فى تعيين خلفه « حامى الحمى » . وفى يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم فى مجلس العموم . وفى نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس اللوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقاً مع الجمهوريين فى مجلس العموم للحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأقتحم قصر وستمنستر وطرد البرلمان (فى فبراير ١٦٥٧) . وآنذاك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكأن التاريخ

بهذا قد ضرب مثلا جديداً للتعاقب التهكمى الساخر الذى ذكره أفلاطون ، وهو تعاقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالدكتاتورية ، فالملكية(٤١) .

٥ — ذروة البيوريتانية

لقد إنطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية . وتحطمت الكنيسة الإنجليزية فى ١٦٤٣ بالغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصادر مذهب البروتستانتية المشيخية (البرسبتريان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية — نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمى للدوله فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد عامين اثنين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب . وبدا لبعض الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانة مالية من جانب الدولة . ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شىء تقريباً مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق . وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسية والحصول على رواتب . ولم يكن أهلا لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبتريانز . وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى أو نظام الكنيسة المستقلة — وفيه يحكم كل مجمع نفسه . وإختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة . أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلندة ، فقد اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير . أما رجال الدين الأنجليكانيون . الذين بلغوا يوما حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من رواتبهم ، وباتوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أماكن خفية ، مثل الكهنة الكاثوليك . وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية(٤٢) . وكانت الكاثوليكية لاتزال خروجا على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفى ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين، بموافقة كرومول ، قانونا يقضى بمصادرة ثلثى ممتلكات أى فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتنصل من الكاثوليكية ويبرأ منها(٤٣) . وفى ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعى طبقى : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار العماد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبة فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوى الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التى لم تعد الدولة تعترف بها .

وإنعكس التعصب الدينى رأسا على عقب ، أكثر مما تناقص أو خفت حدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين تعالت صيحاتهم من قبل طلبا للتسامح ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا فى المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الدينى والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما إرتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أى نقديوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكلفنية(٤٤) . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتغاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة فى لندن ، بل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد العماد بأنه « وحش سفر الرؤيا » (النبى الكذاب)، ولكنه احتمل هجومهما صابرا(٤٥) .

واستخدم نفوذه فى وقف اضطهاد الهيجونوت فى فرنسا وأتباع والدونى بيد موت . ولكنه عندما طالبه مازاران ، فى مقابل ذلك ، بمزيد فى التسامح مع الكاثوليك فى إنجلترا ، تذرع بعجزة عن الحد من حماسة البيوريتانيين(٤٦) .

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل فى الحياة اليومية عند اليهود وحدهم ، كما فعل عند البيوريتانيين . والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود فى كل شىء تقريبا ، فيما عدا ألوهية المسيح . وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب المقدس . وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة . وكان الشغل الشاغل فى الحياة هو الخلاص من نار جهنم . والشيطان موجود حقاً وفى كل مكان . وبنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب المقدس ومجازاته . وأشرق فى عقولهم التفكير فى الله وفى المسيح أو تجلياتها لهم ، وملأتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط فى السيدة مريم . واتسمت ملابسهم بالبساطة والكآبة ، وخلت من أية زينة أو زخرف ، كما اتسم كلامهم بالوقار والرزانة مع البطء . وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدنس واللذة الحسية . وكانت المسارح قد أغلقت فى ١٦٤٢ بسبب الحرب ، فظلت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها . وحرم سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات للمصارعة ، ومطاردة الدببة أو الثيران ، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتانى نيوسن قتل كل الدببة فى لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن(٤٧) . واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشرطة والزهور وتقام فى أول مايو) . وكان الجمال شبهة ، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات ، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء ، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنة . ونفروا من الموسيقى ، ماعدا فى التراتيل الدينية .

وقضوا على الفن فى الكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، وبيتر للى ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحية الزواج المدنى ، وأبيح الطلاق ، لكن الزنى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقا للسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقبا ، وعشرة أمثال مايدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامه لأنه قال : « الله شهيد على(٤٨) » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت للتأكد من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحا بفتح الحوانيت يوم الأحد ، كذلك كانت الألعاب والرياضه والأعمال الدنيوية محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظورا « التسكع أو المشى الدنس بلا هدف(٤٩) » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسيا متزمتا حتى أيامنا هذه .

أن كثيرا من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أقسى مما تحتمل الطبيعه البشرية . وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فكانوا يفترقون الآثام كما هى العادة ، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة ، ولكن دائما تعروهم الكآبة ويخرجون أصواتا من أنوفهم وتنساب من أفواههم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عددا كبيرا من البيوريتانيين التزموا بأنجيلهم فى إخلاص وشجاعة . ولسوف نرى ألفين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخلى على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة.

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفزع من نارجهنم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت فى البيت الكآبة والظلمه ، فإن حياة الأسرة عند عامة الناس قد أسبغ عليها نظام و نقاوة بقيتا بعد الإنحلال الذى تميزت به صفوة المجتمع فى عهد شارل الثانى .

وجملة القول أن النظام البيوريتانى ربما أحدث أصلاحا خلقيا جددته ودعمته حركة المنهجية فى القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح دينى قادها تشارلز وجون ويزلى فى أكسفود ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترة) ـ وإليه يرجع أكبر الفضل فى الأخلاقيات العالية نسبيا التى تتميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ ـ الكويكرز

تألقت فى الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجامح والتعصب الأعمى . وكانت خشيه الله والخوف من الشيطان قويين جداً فيهم إلى حد يصيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلى ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تقتحم الإجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطنى ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر فى النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه فى يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته فى معظم الناس إن لم يكن كلهم وهى هزات وحركات ، تنتهى بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأنات ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أى المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية فى بدايه الأمر(٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف إختلافا يسيرا عن هذا .

« إن القاضى بنت من دربى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى فى ١٦٥٠ [٥١] » أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا « مجتمع الأصحاب » .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هنا ، وإلى مالا نهاية . إنهم تقبلوا المبادىء الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحى الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت المسيح بن الله لتخليص البشر ، امكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتشريفها. أن إدراك هـــذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند الكويكرز . وإذا نهج الإنسان سنن ذاك « النور » لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنيسة . فان هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دبجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن القوة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساجين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الوعظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاته (١٦٩١) . وفى سنيه الأولى حيرته وأقضت مضجعه المغريات فراح يلتمس النصح والمشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وفصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة اترايم

الدينية(٥٢) . وفقد جورج ثقته بالقساوسة، ولكنه وجد السلوى والعزاء حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالبا ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لآخذ مكانى فى احدى الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيرا ماسرت فى الليل محزونا وحدى ، لأنى كنت رجلا مثقلا بالأحزان فى أيام أعمال الله الأولى فى نفسى ٠٠٠٠ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ، وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تتيسر للناس فى حالتهم الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون الكتب(٥٣) .

وسرعان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليبشر الجميع بالنور الباطن ويعظهم . وفى اجتماع الأنصار العماد فى لبسترشير « حل الله عقدة لسانى فأعلنت لهم جميعا الحقيقة الخالدة ، وظللتهم جميعا قوة الله(٥٤) » وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها ايحاءات وإلهامات وتنبؤات عظيمة(٥٥) » . بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم(٥٦) . أى أن جورج قر الآن عينا بما وقر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله قبل الخليقة ، لتتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه مساو لأى إنسان . ومنحه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع قبعتى لأى من كان : حقيرا أو أميرا ، وأنتم فى حاجة إلى ، أيها الرجال والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير(٥٧) » .

وإذ اقتنع بأن الدين الحق لايوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير ، فإنه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعظة صائحا بأن الاختبار الحق ليس فى الأشعار المقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول المعتنقين لمذهبه . واستأنف فوكس جولاته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للكاهن والناس ، ولكنهم انهالوا على « في غضب شديد وطرحوني على الأرض . وضربوني ضربا مبرحا وآذوني ايذاء شديدا بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيهم » فاعتقل مرة ثانية، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالى قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة(٥٨) . وفى دربى تحدث مهاجما الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة فى الاصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجانوه معتقلا قذرا كريه الرائحة غائرا فى الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام(٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضا على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة .

وبعد عام قضاه فى السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفى ويكنفيلد حول جيمس نايلر ، وفى بفرلى دخل كنيسة ، وجلس منصتا حتى انتهت الموعظة ثم سأل الواعظ : هل لم يشعر بالخجل « حين يتقاضى ثلثمائة جنيه سنويا ليبشر بالأسفار المقدسة(٦٠) ؟ « وفى بلدة أخرى دعاه القسيس لالقاء عظة فى الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث فى فنائها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنى لم أحضر لأعترض سبيل معابدهم الوثنية ولا قساوستهم . ولا عشورهم ... ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنى أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أى مكان آخر .... لذلك نصحت الناس أن ينبذوا كل هذه

الأشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله ونعمته فيهم أنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم(٦١) .

وفي سوورثمور في يور كشير حول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضي توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعـــة سوورثمور ، أول مركز أساسي لاجتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب

وليس علينا أن نتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه فجة غير ناضجة ولكنه عوض بما تذرع به من صبر وجلد في ملاقاة سلسلة الاعتقالات والصدمات العنيفة ، وهاجمه البيوريتانيون والمشيخيون والأنجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لا لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب ، فحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن اليمين أيا كانت عمل غير أخلاقي ، ويكفي القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس في لقاء ودي (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثمانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساعة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر »(٦٢) . وفي ١٦٥٧ أصدر (حامي الحمى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاء بأن يعاملوا هؤلاء الوعاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقعون تحت تأثير وهم شديد)(٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشده هو ما أصاب شيعة جيمس نايلر الذي بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو للمسيح مجسدا من جديد ، وأنبه فوكس على هذا ولكن بعض أتباعه المخلصين الغيورين عبدوه ، وأكدت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى ؛ وعندما ركب نايلر إلى بريستول ، ألقت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس رب القربان المقدس » وقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سألوه عن دعاواه أو الدعاوى التى نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب للمسيح « أنت قلت » وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلر (١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بحل وسط إنسانى فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه فى آلة التعذيب (المشهرة) ، ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B فى الانجليزية) ، وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى ، واحتمل هذه الفظائع بشجاعة . وحياه أتباعه على أنه شهيد ؛ وقبلوا جراحه وامتصوها واحتجزوه وحيدا فى معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ، وانهارت روحه المعنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه فى ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما فى ١٦٦٠ (٦٤) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير المتاعب . إنهم لم يجيزوا أى أثر للزخرف والتبرج فى ملابسهم . وأبوا أن يخلعوا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى فى الكنيسة أو القصر أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير الجمع (أنتم) الذى يوحى أصلا بالتشريف والتكريم . ونبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال : « اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات فى العراء أو بين الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروح الجميع بعد ذلك فى صمت رهيب يكلله الجلال والوقار ، وكأنما هذا الصمت عقار مهدىء مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى فى أساسه عندهم « إحساس بروح خيرة فى أعماقهم » . ورخص للنساء فى الصلاة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحد من تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى انجلترا ستين ألف « صاحب » إذ ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، ارتفع بهم من للراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ ـ الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول. وفوق كل شىء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للصالح الاقتصادية أو يمتلكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرعان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطا فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستمرت حمى الإمبريالية بنمو البحرية . وأوحت ذكرى هو كنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بإمكان كسر شوكة الأسبان وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء انجلترا على تجارة الرقيق الرابحة وتوجيه المعادن النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فان غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية(٦٥) .

وفى • أغسطس ١٦٥٤ بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفى ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولا بقيادة بليك . وفى ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت امرة وليم بن (والد أحـــد أعضاء الكويكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (احدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولكن بن استولى على جمايكا لانجلترا (١٦٥٥) .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين للسياسة » تحالفا انجليزيا فرنسيا ضد أسبانيا . إن الحرب التى كانت أسبانيا قد استمرت شنها على فرنسا بعد معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل فى شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحكم فى انجلترا ، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحا رائعا ، وإن كان عابرا . وتربص بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الفضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه فى ميناء سانتا كروز فى جزر كانارى ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة فى هزيمة الجيش الأسبانى فى معركة تلال الدونز (بالقرب من دنكرك) فى ٤ يونيه ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصلح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنكرك لانجلترا ، وبدا كرومول وكأنه عوض عن فقدان مارى تيودور لثغر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فكر فى أن يضفى على اسم الإنجليز من العظمة ماكان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمد حكمها وسلطانها فى آسيا . ونظرت أوربا كلها بعين الفزع إلى البيوريتانى الذى كان يسبح الله ولكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولكنه كسب معركة ، والذى أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التى تعلوها

التيجان ، والتى حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتمس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون ثورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة فى الصعود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة انجلترا فى تدعيم توازن القوى فى القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضى يقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن فى ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة فى البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع فى الأراضى الوطيئة وفرانش كونتيه واللورين . وكم من رجل إنجليزى كان يجود بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية .

وفى نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد فى ١٦٥٧ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروعا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة فى خمس شئونها(٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل فى اقتصاد انجلترا وفى سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه فى عهد شارل الأول وشارل الثانى . وباعت معظم أراضى التاج وأراضى الكنيسة الأنجليكانية ، وضياع كثير من الملكيين ، ونصف أراضى أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط العجز السنوى ٤٥٠ ألف جنيه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادى إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التى ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذى قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانونى ، والمحاكمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون ستر أشد ازعاجا وظلما عن ذى قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغيضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد(٦٧) » .

وكانت انجلترا ترقب موت حامى الحمى بصبر نافذ . وكم من مؤامرة دبرت لاغتياله ، وكان عليه دوما أن يأخذ حذره ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلا ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسبى Sexby ، أحد السفاحين لقتله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات فى السجن . وفى شهر مايو نشر سكسبى كتيبا بعنوان « قتل ليس بقتل » ، كان دعوة صريحة للاطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسبى ومات هو أيضا فى السجن . ودبرت المؤامرات فى الجيش وفى دوائر الملكيين ، حيث ازداد أملهم بشكل جنونى فى عودة أسرة ستيوارت إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتوود المبادىء الجمهورية ، ونعت على والدها دكتاتوريته(٦٨) .

وحطمت الهموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدى . إنه مثل كثير ممن بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحيانا لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء فى أيامه الأولى يوم كان من ملاكى الأرض فى الريف . « إنى أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أنى عشت فى ظل تعريشة ورعيت قطيعا من الغنم ، لكان خيرا من أن أتولى حكومة مثل هذه(٦٩) » وفى أغسطس ١٦٥٨ ماتت اليزابث أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حمى متقطعة ، وربما أفاد الكيميين فى شفائه ، ولكن طبيبه أبى أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوربا(٧٠) . وبدا أن كرومول أبل من مرضه ، وتحدث فى جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلا : « لاتظنى أنى سأفارق الحياة ، انى واثق من عكس هذا(٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يعين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أى ابنه الأكبر . وفى الثانى من سبتمبر أصيب بنكسة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياه ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالى فارق الحياة . وكتب السكرتير ثورلو: « لقد صعد إلى السماء مضمخا بدموع شعبه ، على أجنحة صلوات القديسين ودعواتهم(٧٢) » ولما وصلت أنباء موت كرومول إلى أمستردام « أضيئت المدينة أيما اضاءة ، وكأنما انطلقت من عقالها ، ومضى الأطفال فى القنوات هاتفين متهللين فرحا لموت الشيطان(٧٣) .

٨ — طريق العودة

١٦٥٨ — ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية مايمكن أن يقيد به انجلترا فى الأغلال التى صنعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يشارك أخته ، رقة العقل مما جعلهما ينظران فى فزع خفى إلى سياسة الدم والحديد التى انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، عاش فى هدوء وسلام فى الريف على الضيعة التى حصل عليها بالزواج ولم يسكن به من طموح فى أن يصبح فى ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى لحمى » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته ، ولم تكن تليق له العظمة(٧٤) » .

وأفلتت الآن ، فى جرأة أكثر ، كل العناصر التى كان أوليفر قد كبح جماحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش الذى كره فيه خلفيته المدنية ، والذى رغب فى أن يحتفظ بالسلطة التى كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش إلتمس منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

بتعيينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع فى ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستيوارت إلى العرش . فجاء ضباط الجيش تتبعهم زمر من الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون فى الجيش يتزعمهم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التى كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى مجىء كرومول ، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين فى الجيش ١٦٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمان المبتور الجديد فى وستمنستر فى مايو ١٦٥٩ . ولكن ريتشارد الذى لقى من السياسة نصبا ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان فى ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفى ١٦٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش فى عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى انجلترا فى ١٦٨٠ ، حيث وافته منيته فى ١٧١٢ وهو فى السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد الملكيين فى ٣ يونية ١٦٥٩ يقول : « أن الفوضى كانت تعتبر كمالا ، إذا قيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة(٧٥) » واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمان ، ولكن قطاعاته المقيمة فى اسكتلندة وايرلندة أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملكى قوى فى البرلمان الذى كانت غالبيته من الجمهوريين . وفى ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرد البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدا أن تعاقب الأحداث التى بدأت بحركة برايد فى التطهير ، سوف تتكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون عن « انقلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشد الأعمال خزيا وعارا .... إنى لأخشى أن أكون واحدا في مجتمع همجي متبربر ... والا فكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التي أقامته ، على هذا النحو(٧٦) » ولكن الشاعر كان عاجزا لا حول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة في بريطانيا ، التي كان في مقدورها أن تقف في وجه الدكتاتورية العسكرية هي جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندي الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته في اسكتلنده . ولسنا ندرى إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تحدى الجيش في لندن ومقاومة اغتصابه السلطة. فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة السيف التي كبلتها في أغلال العبودية التي لا تحتمل » . وأثار بيانه الحماسة والحمية في عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكرى . ورفض الأهالى دفع الضرائب وأعلن الجيش في أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين ، انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التي اعتمدوا عليها في دفع الرواتب للجند . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن الفوضى التي تنتشر ويتفاقم خطرها ، تهدد الحياة الاقتصادية في انجلترا ، وبدأوا يعجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسي أو الاقتصادي دون ملك ، تهدىء شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفر الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفي ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر ٣٦ عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهوري . وكان من أول القرارات التي اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين وممن ينضمون إليهم فى المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلى عن أسرة ستيوارت . كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان المبتور السابق ، على أساس أنهم يحبذون عودة شارل الثانى . وازدرى الناس هـــذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل انجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على هيئة تمثال يلقى به فى النيران الكثيرة المشتعلة فى الهواء الطلق ، حتى بلغ عدد هذه الحرائق ٣١ فى شارع واحد فى لندن . وأما الجنرال مونك الذى كان جيشه قد وصل إلى لندن فى ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أنذر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه فى موعد غايته ٦ مايو ، فإنه — أى مونك — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار على البرلمان بإعادة الأعضاء المشيخيين الذين سبق إبعادهم ، ففعل . وأعاد مجلس العموم الموسع (ازداد عـــدد أعضائه) إقرار مذهب المشيخية (البرسبتريانز) فى انجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفى اليوم نفسه محا أحد العمال ، أو لطخ بالطلاء ، عبارات « أخرج أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التى كانت الجمهورية قد علقتها فى « بورصة لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثانى » وعندئذ ، كما يروى ، « انضم كل من كان فى المكان يهتفون بأصوات مدوية(٧٨) . وفى اليوم التالى التقى مونك سرا برسول شارل ، سير جون جرينفل ، الذى أسرع فى الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة مونك إلى الملك غير ذى العرش .

٩ — ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شـــارل الثانى انجلترا فى ١٦٥٠ هاربا لاقى فى هربه عنتا ومشقة ، عاش متشرداً قلقاً فى القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماريا فى باريس ، ولـكن الفرنسيون كانوا قد أفقروها • وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت فى أشـد العوز ، عالة على الإعانات ، حتى أن مستشاره المخلص ، فيما بعد ، ادوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة فى اليوم • أما شارل نفسه الذى لم يكن لديه مايسد الرمق فى البيت ، فـكان يتناول الطعام فى الحانات فى معظم الأحوال نسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشا سنوياً قـــدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغـدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه •

وتعلم فى أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا آن أعمق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاهما فى ضمه إلى الـكاثوليكية ، كما أن الـكاثوليك الانجليز المهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً فى تذكيره ، حتى لا ينسى ، مافعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعده مبعوثو المهاجرين المشيخيين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لـكلا الجانبين فى لطف وكياسة ، ولـكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الـكنيسة الانجليكانية الذى قاسى أبوه من أجله ماقاسى(٧٩) ، وربما نزع به الجدل الذى حاصروه به ، إلى الشك فى الدين كله • ولـكن يبدو أن العبادة الـكاثوليكية التى رآها حوله فى فرنسا ، كان لهـا أثر قوى عليه ، وبات سراً مكتوما فى حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يداه لانحاز إلى الـكنيسة الـكاثوليـكية (٨٠) وفى ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يعـده بأنه لو عاد إلى عرش انجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التى صدرت ضد الـكاثوليك • ولم يجب البابا بشىء • ولـكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الفاتيكان لا يمـكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) •

وعندما شرع مازاران فى التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا . ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار فى صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك فى ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مونك : إذا وعد شارل بعفو عام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح « حرية الفكر » وثبت الملاك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مونك يلتزم بمساعدته . وفى نفس الوقت ، حيث أن انجلترا مازالت فى حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضى الوطنيئة الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدا فى إقليم برامانت الهولندى ، وهناك فى ١٤ ابريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مونك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات بمجلس عموم ذى أغلبية ساحقة من الملكيين ، واتخذ اثنان وأربعون من صغار النبلاء مقاعدهم فى مجلس اللوردات الجديد وفى أول مايو تليت فى المجلسين كليهما الرسائل التى حملها جرينفيل من شارل وفى « إعلان بريدا » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنيهم البرلمان فيما بعد » ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد « بألا يزعج شخصاً أو يستدعيه لمساءلته لخلاف فى الرأى فى أمور العقيدة ، وألا يعكر صفو الأمن فى المملكة » . ثم أضاف بياناً حكيما أعده له المستشار هايد :

> أنا نؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هذا كله جزء حيوى من دستور المملكة ، ضرورى لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس ثمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف ننظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معتزين بمآثرهم مهتمين بالمحافظة

عليها وحمايتها ، قدر اعتزازنا واهتمامنا بأقرب شيء إلى أنفسنا ، وألزم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفى ٨ مايو نادى بشارل الثانى ملكا على انجلترا ، مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند فى ذلك إلى أى قرار برلمانى ، بل إلى حق المولد الوراثى . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات إلى شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت انجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقدين من السنين سادهما العنف ، بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس فى طول البلاد وعرضها . وفى لندن جثا الناس فى الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) . وهللت كل الرؤوس المتوجة فى أوربا لانتصار الشرعية ، حتى المقاطعات المتحدة ، وهى جمهورية بشكل قوى ، كرمت شارل طوال رحلته من بريدا إلى لاهاى ، وقدمت له الجمعية التشريعية التى كانت قد تجاهلته حتى الآن ، مبلغ ثلاثين ألف جنيه لنفقاته ، عربونا للنيات الطيبة فى المستقبل . وجاء إلى لاهاى أسطول انجليزى توفرت عليه الأعلام مزدانة بالحروف الأولى من « الملك شارل » وحمله إلى انجلترا فى ٢٣ مايو .

وفى ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطىء عشرون ألفا لاستقبال الملك . ولما اقتربت السفينة من الشاطىء سجد الجميع ، كما سجد الملك عندما وطئت قدماه الأرض ، شكرا لله . وكتب فولتير : « أنبأنى العجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » . وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد(٨٣) . وعلى طول الطريق الذى احتشدت فيه الجموع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شارل ومرافقوه ، تتبعهم مئات الناس ، إلى كنتربرى ، ثم روشستر ومنها إلى لندن . وهناك خرج (١٢٠ ألفا للترحيب به ، حتى الجيش الذى حارب ضده ، انضم الآن إلى قوات مونك ، فى هذا العرض . وانتظره أعضاء مجلسى

البرلمان فى قصر هو يتهول . وقال رئيس مجلس اللوردات : « أيها الملك المهيب ، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لمختلف طبقات الشعب وسند لها ، فى تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلافات .... واستعادة شرف هذه الأمم المنهار (٨٤) . » وتقبل شارل كل هـذه التحية والإطراء فى لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شىء من الراحة بعد أن أرهقه الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لابد أنه كان من الخطأ أنى لم أحضر من قبل ، فإنى لم ألتق اليوم بفرد واحـــد لم يحتج بأنه كان دوما راغبا فى عودتى (٨٥) » .